الحلقة الرابعة والعشرون

كامل الشناوي

لم يكن يتوقع أكثر المتفائلين.. تفاؤلاً بأن يصبح ذلك الصبي (السمين) المعمَّم - ابن حي (السيدة زينب)، الهارب في أوائل عشرينياته من صحن الأزهر و«عالميته»، و«مقرراته» الدراسية الجامدة المرهقة - أي شيء ذي قيمة.. في مصر الذاخرة بأدبائها وشعرائها وكتَّابها وعلمائها وفنانيها بعد الحرب العالمية الأولى، فضلاً عن أن يكون «نيزكاً» من نيازكها الشعرية.. فـ «شهاباً» من شهب صحافتها في الأربعينيات.. فـ «كوكباً» لامعاً من كواكبها الثقافية والأدبية والفكرية، تدور في فلكه نجوم الصحافة والفكر والأدب والموسيقى والغناء وهو يتربع على رأس المجتمع، ويشارك في توجيهه وصياغة مصيره في الخمسينات وإلى منتصف الستينات من القرن الماضي..!

لكنها، مواهبه.. وفطنته، وفطرته، وذكاؤه وخفة دمه.. بل «ومقالبه» التي كان يجيد صناعتها وصياغتها.. هي التي أخذت به مجتمعة من موقع إلى موقع، حتى غدا منشداً لشعر (شوقي) الذي كان لا يحسن إلقاء شعره.. فصديقاً و«جليساً» لرئيس وزراء مصر الحديدي (محمد محمود) باشا في أربعينات القرن العشرين،

وكان قد أصبح وقتها محرراً أدبياً بالقسم الأدبي في صحيفة (الأهرام).. عبر واحد من (مقالبه) الشهيرة.. وربما أولها، فقد كان بعد مغادرته الأزهر وانضمامه إلى إحدى «الجمعيات الشعرية».. يبعث ببعض قصائده إلى (الأهرام)، لكن رئيس القسم الأدبي بها.. كان يريد شعراً متقعراً في ألفاظه وقوافيه، وليس شعراً عذباً سلساً يحفل بالمعاني وحرارة الوجدان كذلك الذي كان يكتبه (كامل الشناوي).. فكان ينشر له قصيدة، ويرمي ببقية القصائد في «سلة المهملات»، فقرر أن يكتب له قصيدة من النوع الذي يستهويه، فكتب قصيدة.. ووقعها باسم أحد الشعراء الكبار، وأرسلها لتنشر في الأسبوع التالي.. وقد انطلت «الأكذوبة» على رئيس القسم عندما نشرها، لتكون فضيحة بجلاجل - كما يقولون - لرئيس القسم، ليجري بعدها تعيين الشناوي (محرراً) بالقسم الثقافي، فيكتشف رئيس التحرير الأستاذ تقلا باشا.. بعد شهور، أن كامل الشناوي.. على صلة وثيقة وعلاقة حميمة برئيس وزراء مصر (محمد محمود باشا)، وأنه من جلساء صالونه الذي يضم الوزراء والسفراء وعلية القوم، فيضرب كفاً على كف.. وهو يقول له مستنكراً: وتكتفي بكتابة القصائد يا (كامل).. وأنت بين يديك (منجم) الأخبار هذا..؟!

فوعده (الشناوي) خيراً، ليأتيه بعد أيام بـ «خبر» التقطه من صالون الباشا بـ «أن عثمان أمين - المعروف بولائه للإنجليز - سيقوم بزيارة للقدس ليجتمع بأحد المسؤولين الإنجليز، وأن مفاوضات على مستوى عال ستدور هناك»، وسلمه لـ (تقلا باشا)

الذي أعاد صياغته.. ونشره باعتباره مُرسَلاً من مندوب الأهرام في «القدس»، لتقوم الدنيا.. ويكتشف محمد محمود باشا، أن من أوصل الخبر إلى الأهرام... ليس مراسله في (القدس).. ولكنه مراسل من قصره وهو لا يدري!! فبلع ذلك (المطب).. وهو يترصد جليسه الأديب الشاب (كامل الشناوي) بالانتقام، عندما تلوح الفرصة، التي سرعان ما اختلقها (الباشا) عندما سرب وهو يتحدث في الهاتف - على مسمع من كامل الشناوي - بأن «جوبلز» وزير إعلام ألمانيا الهتلرية الأشهر.. قد وصل إلى القاهرة «سراً» ليبدأ مفاوضات مع القيادات المصرية عن ما ستؤول إليه حال العرب بعد الحرب، فطار (الشناوي) بالخبر إلى (تقلا باشا)، الذي لم يصدق «الخبر» بخبرته السياسية.. بل أخذ يتحرى الصدق فيه بسؤال أصدقائه من السفراء والقناصل، وإدارات الفنادق الكبرى والمطار.. عن حقيقة الخبر؟ فلم يجد له ظلاً في الحقيقة.. حتى بلغت الساعة الثانية صباحاً، فيضطر معها إلى التحدث إلى محمد محمود باسا نفسه.. في ذلك الوقت المتأخر كي يتأكد من صحة الخبر فينشره أو يرجئه أو يلغيه تماماً.. إذا لم يكن صحيحاً، فما أن سمع الباشا.. صوت (تقلا) إلا وأطلق ضحكة رنانة وهو يقول له: (علشان كامل يتعلم)!! وتعلم كامل الشناوي.. بل وحسم أمر تردده في العمل بـ «الصحافة» من عدمه، ليصبح بعد تلك التجارب (صحفياً).. يترأس تحرير كبريات الصحف والمجلات من (آخر ساعة) إلى (الإثنين) إلى (أخبار اليوم).. إلى (الجمهورية) مع الخمسة الكبار الذين كانوا يترأسون تحريرها معاً: د. طه حسين،

ناصر الدين النشاشيبي، إسماعيل الحبروك، إبراهيم نوار وسامي داود.

* * *

لكن (الصحافة).. وبكل أضوائها التي غمرته بها في الثلاثينات والأربعينات حتى جعلت منه ومن مجلسه الليلي في شرفة فندق (سميراميس) - القديم - في قلب القاهرة.. محجة للوزراء والسفراء والأدباء وكبار الفنانين من المطربين والموسيقيين والسينمائيين من المصريين والعرب من كل أقطارهم، لم تمنحه ذلك (المجد).. الذي لا يطال، والذي حفرته له فيما بعد في ذاكرة الأجيال.. مع نهايات الأربعينات: وطنيته وفلسفته وأحزانه وأسئلته الحائرة، التي لا تجد جواباً لها: (من أين.. وإلى أين؟ وأيهما أقسى: الحياة أم الموت..؟)، وشعره الوطني الملتهب.. الذي استهله أعظم وأروع استهلال مع مقاومة المصريين لجنود الاحتلال البريطاني في مدن القناة.. بعد هزيمة ٤٨م بـ (نشيد الحرية)، الذي عندما استمعت إليه كاملاً بصوت الأستاذ محمد عبدالوهاب.. وعلى موسيقاه، لم أصدق أن هناك.. شعراً وطنياً، يمكن أن يُكتب بكل هذا الصدق والعظمة والجرأة:

(كنت في صمت مُرْغم
كنت في صبرك مُكرَه
فتكلَّم، وتألَّم
وتعلَّم كيف تكره

* * *

عِرْضكَ «الغالي».. على الظالم هانْ
ومشى العارُ إليه وإليك
أرضك الحرةُ غطاها الهوان
وطغى الظلمُ عليها وعليك
* * *
قدِّم الآجال قرباناً لعرضك
اجعل العمرَ سياجاً حول أرضِك
غَضبةً للعِرضِ.. للأرضِ.. لنا
غضبةً تبعث فينا مجدنا
وإذا ما هتفت الهول بنا
فليقل كل فتى.. إني هنا
.. أنا يا مصر فتاك
بدمي أحمي حماك
ودمي ملء ثراك
* * *
أنا ومضٌ وبريق
أنا صخرٌ.. أنا جمرٌ
لفحُ أنفاسي حريق
ودمي نارٌ.. وثأرُ
* * *
بلدي.. لا عشتُ إن لم أفتدِ
يومك الحرُّ بيومي وغدي

.. نازفاً من دم أعدائك..
ما نزفوه من أبي أو ولدي
.. آخذاً حريتي من غاصبيها
.. سالبيها وبروحي أفتديها
هات أذنيكَ معي واسمعْ معي
صيحةَ اليقظة.. تجتاحُ الجموع
صيحةَ.. شدت ظهور الرُّكَّعِ
ومحت أصداؤها عار الخضوع).

ثم أعقبه عام ١٩٥٨هـ.. بـ «قصيدته» التي استقبل بها (أول وحدة عربية) بين سوريا ومصر، والتي كان عنوانها (أغنية عربية).. قائلاً:

(كان وهماً وأمانياً وحُلماً
كان طيفاً!
وصحى النائمُ يوماً
ورأى النورَ فأغفى
كلما استيقظ نام
وارتمى بين الظلام

* * *

ثم كانت صحوةٌ.. كالنار، كالتيار
.. كالقدرِ العنيد..!!

أيقظته، بعثته، خلقته
من جديد؛ من حديد

* * *

لا تسلني أين كنّا؟
أين أصبحنا.. وكيفا
.. لا تسلني ما الذي وحّدنا
قلباً وصفّا
سَلْ جموعَ الشهداء
سل دموع الأبرياء)

.. إلى أن يقول في ختام تلك الرائعة الوطنية:

(عرف الشعبُ طريقه
وحد الشعبُ كفاحه
فإذا الحلمُ حقيقة
والأمانيُّ إرادة!)

وتغير الزمان.. ليكتب الشناوي رائعته الوطنية الأخيرة (أنا الشعب).. قائلاً:

(على باب مصر تدق الأكف ويعلو الضجيج
جبالٌ تدور، رياح تثور، بحارٌ تهيج
وتصغي! وتصغي!!
فتسمعُ بين الضجيج سؤالاً وأي سؤال!!

وتسمع..
همهمةً كالجواب، وتسمع همهمة كالسؤال
أين ومـن.. وكيف إذن؟
نعم كيف أصبح هذا الجلال
بأقصى مداه!؟
حقيقة شعب
غزاه الطغاة، وأي طغاة؟!
أمعجزةٌ ما لها أنبياء؟
.. أدورةُ أرض بغير فضاء؟!)
.. إلى أن يقول:
(وصاح من الشعب صوت طليق
قوي، أبيٌّ، عريقٌ، عميـق
يقول: أنا الشعبُ والمعجـزة
أنا الشعب لا شيء قد أعجـزه
وكل الذي قـاله أنجـزه..!!)

* * *

على أن الشناوي.. ورغم قلة قصائده إجمالاً، وتهيبه من النشر لـ«كتاب» أو «ديوان».. بعد أن استقرت في وعيه مبكراً «قولة» ذلك الناقد بـ (إن الإنسان يظل بعقله.. إلى أن يؤلف كتاباً أو يجمع ديوان شعر) ..!! فأراد أن يحتفظ بـ«عقله» ويمتنع عن النشر.. إلا أنه

كان ينشر وبانتظام مقالاته والقليل من قصائده في تلك الصحف التي كان يرأس تحريرها، وهو ما جعل أحدهم يتخابث بسؤاله عما يُنشر له من مقالات أو قصائد؟ فكان رده الفلسفي الجميل: (إنني لا أنشر شيئاً.. ولكنني أدفن بعض ما أكتبه في دفاتري الخاصة، وأدفن بعضه الآخر في مطابع الصحف التي أعمل بها، ومن حسن حظي أن ما دفنته في مطابع الصحف.. أصابه البعث، ولقي صداه عند قارئ أو أكثر.. فأصبحت كاتباً في رأي بعض القراء)..!؟

ولكن هذا الذي قاله.. لم ينطل على قرائه ومحبيه ومتابعيه، فقد كان يكتب مقالاته بانتظام.. بحكم مسؤولياته عن تحرير تلك الصحف التي كان يرأسها، أما شعره.. فقد كان يعكس نبض قلبه وفكره، وروحه الباحثة عن حب عصيٍّ لم يجده.. ليفاجئ العالم العربي في إحدى ليالي شتاء عام ١٩٦٠م وعلى أمواج إذاعة القاهرة وهو ينشد رائعة روائعه الخالدة بـ «صوته» الأجش العميق.. قصيدة (لا تكذبي)، التي روى فيها بأعلى درجات الصدق والعذوبة والأسى قصة حبه (الغادر) لإحدى فنانات مصر:

(لا تكذبي.. إني رأيتكما معًا
ودعي البكاءَ فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور إذا جرى
من عين كاذبةٍ
فأنكر وادعى!!

* * *

إني رأيتكما

إني سمعتكما

عيناك في عينيه.. في شفتيه.. في كفيه.. في قدميه

ويداك ضارعتان.. ترتعشان من لهف عليه!)

لقد كانت تلك القصيدة.. وكأنها محضر شعري بـ (واقعة) خيانتها له، ليكتب فيما بعد قصيدته (الثانية).. إلى (حبيبها) الذي خطفها منه:

(حبيبها، لست وحدك حبيبها

حبيبها.. أنا قبلك!

وربما جئت بعدك

وربما كنت مثلك

* * *

فلم تزل تلقاني

وتستبيح خداعي

بلهفة في اللقاء

برجفة في الوداع)

ثم يعود.. إلى قلبه.. في قصيدته (الثالثة) حول ذلك الحب الغادر، والتي جاءت بعنوان (قلبي).. ليسأله:

(أنت قلبي، فلا تَخَفْ

.. وأجبْ: هل تُحبها؟

وإلى الآن لم يزل

نابضاً فيك حُبها؟

لست قلبي أنا إذن!
.. إنما أنت قلبها!!

* * *

كيف يا قلبُ ترتضي
طعنةَ الغدرِ في خشوع؟
وتداري جحودها
في رداء من الدموع؟
لست قلبي.. وإنما
خِنجرٌ أنت في الضلوع!!)

إلى أن تنتهي قصة حبه الأول الغادر والأكيد.. بأن يحتمي بـ(كبريائه)، قائلاً في قصيدته (لست أشكو):

(لست أشكو منكِ
.. فالشكوى عذاب الأبرياء!
وهي قيد ترسف العزةُ فيه والإباء!
أنا لا أشكو
.. ففي الشكوى انحناء!
وأنا نبض عروقي كبرياء!)

لقد قام ديوانه الوحيد (لا تكذبي) بقصائده التسع والعشرين.. على قصة ذلك الحب الغادر، و(ملحقاته) الشعرية.. إلى جانب قصائده الوطنية (الأربعة الكبرى: نشيد الحرية، أغنية عربية، على باب مصر، وأوبريت جميلة بو حريد أو «جان دارك»

العربية الجزائرية)، التي تخاطف غناؤها كبار مطربي العروبة: عبدالوهاب وأم كلثوم وعبدالحليم حافظ وفريد الأطرش، ليصبح كامل الشناوي – بديوانه الوحيد.. هذا – كشاعر البحيرة العظيم (الفونس لامارتين).. الذي عاش ومات عن ديوان واحد (!!) هو (خواطر شعرية).. المكون من أربعة عشر قصيدة، من بينها (قصيدة البحيرة)، التي ترجمت لكل لغات العالم، وسافرت إلى أقاصي الأرض.. كما سافر شعر كامل الشناوي إلى كل أبناء العروبة في مواطنهم ومهاجرهم في القارات الست، إلا أنه لم يظهر له شيء بعد ذلك غير مجموعة مقالاته (بين الحياة والموت) ودراسته عن الشاعر العباسي (أبو نواس) وكتابه الفلسفي المبهر (ساعات)، وكتابه الآخر والأخير عن صديقه الموسيقار محمد عبدالوهاب (عرفت عبدالوهاب)، إذ كان كما قال مجايلوه وأصدقاؤه: عاشق من عشاق الليل والحياة و(الكلام).. لا يأوي إلى فراشه إلا عند الفجر، ولذلك وكما قال الأستاذ محمود السعدني بأسلوبه الساخر: (كانت روائعه.. حلقات في الهواء).. إشارة إلى أن ما كان يقوله الشناوي (كلاماً) لم يكن ليقل إمتاعاً عما كان يكتبه (سطوراً)، إن لم يزد!!

* * *

عندما بلغ السادسة والخمسين (عام ١٩٦٤م).. كانت متاعبه الصحية تتزايد نتيجة (سمنته) التي تضاعفت عما كانت عليه، وارتفاع ضغطه، وزيادة نسبة السكر في الدم عن معدلاتها، مما ألزمه التردد على عيادة صديقه الأستاذ الدكتور أنور المفتي..

أحد أشهر وأكبر أساتذة طب القاهرة، الذي أخذه جانباً.. ليشرح له حراجة وضعه الصحي، وضرورة التزامه بالبرنامج الغذائي والعلاجي الذي وضعه له، وهو يسلمه «روشتة» بالأدوية التي عليه أن يتعاطاها.. ثم صحبه لوداعه إلى باب العيادة تقديراً ومحبة له، ليكتب (الشناوي) عن ذلك المشهد في يومياته.. فيما بعد قائلاً: (أحسست وهو يودعني إلى باب غرفته أنه لا يودع صديقاً.. ولكن يشيع جنازة)!!

لتأتيه مناسبة عيد ميلاده السابع والخمسين.. فيستقبلها دامع القلب والعينين.. قائلاً:

(عدت يا يوم مولدي
عدت يا أيها الشقي
الصبا ضاع من يدي
وغزا الشيبُ مفرِقي
ليت يا يوم مولدي
كنت يوماً بلا غدِ!!)

لتتناقل الصحف والإذاعات العربية.. في آخر يوم من أيام عام ١٩٦٦م نبأ وفاته المفاجئ، فتنخلع قلوب محبيه وعشاقه وتلاميذه، في مصر وبامتداد الوطن العربي من محيطه إلى خليجه.. حزناً عليه، وبكاءً لفقده.. وفقد الكلمةِ الشاعرة لواحد من أعظم وأندر مبدعيها في القرن العشرين.

لقد كتب أحد مجايليه – فيما بعد – قائلاً: (ستبقى حياة كامل الشناوي.. أعظم إنتاجه، كما كانت الحياة عنده.. أمتع هواياته)، وهو ما يدعونني لتذكير شباب ثورة الخامس والعشرين من يناير.. من الكتّاب والممثلين والمخرجين السينمائيين لتقديم قصة حياته على الشاشة الفضية، ف «الكلمات» التي كانت تغطي سماء ميدان التحرير بشدو (أم كلثوم).. فتشحذ همم شبابه وهم يهتفون بسقوط الرئيس:

(عرف الشعب طريقه
وحُد الشعب كفاحه
فإذا الحلمُ حقيقة
والأمانيُ.. إرادة)

هي لهذا الشاعر.. لهذا الملهم العظيم (كامل الشناوي).